



المطلب الأول

طلب الفداء



المطلب الأول طلب الضداء

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٣٦-٣٧).

يا للخسة والمهانة فبعد أن كانت لهم في الدنيا الأموال الطائلة التي حولها الله لهم وأبوا أن ينفقوها في سبيل الله ها هم اليوم لا يريدون أن يفتدوا بأموالهم فقط بل إنهم يريدون أن يفتدوا بما في الأرض جميعاً ومثله معه وكانوا أحوج إلى القليل من ذلك لينفقوه في طاعة الله عز وجل، فأين أموال الأغنياء وأين جاء وسلطان المتكبرين المتجبرين؟.

أين أموال من كانت: ﴿مَفَاتِحُهُ لِنُفُوسٍ بِالْعَصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (سورة القصص: ٧٦). أين أمواله وعلمه ومكانته هل أغنت عنه من عذاب الله من شيء؟!.

أين أموال أم جميل بنت حرب التي كانت تعير رسول الله ﷺ بفقره وتتطاول عليه بأموالها وكنوزها هل نفعتها تلك الأموال وهذه الكنوز؟!

أين أموال وأولاد أبي لهب؟! الذي ظن أن ماله وولده سينجيه من العذاب وكان يعير رسول الله ﷺ بقله الولد، وظل يردد في قريش صار محمد أبت - لما مات ابنه ﷺ - فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (سورة الكوثر: ٣)، وكان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً - من العذاب لمن كفر وصد عن سبيل الله - فإني اقتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي. فهل هم مغنون عنه من عذاب الله من شيء؟!

﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَبِيٍّ (١٦) وَصَاحِبَةٍ وَآخِيهِ (١٧) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٨) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (سورة المعارج: ١١-١٤).

أين أموال العاص بن وائل الذي أخذ أموال خباب بن الأرت رضي الله عنه، فلما طلبها خباب من العاص قال له: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقال الخباب: لا أكفر حتى تموت ثم تبعث، فقال العاص: دعني أموت وأبعث فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك! فنزلت فيه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَزِثُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (سورة مريم: ٧٧-٨٠)، فهل نفعته أمواله وأولاده من الله شيئاً حينما وقف بين يدي الله ذليلاً فرداً؟

بل أين ملك فرعون وجناته وغيونه الذي كان ينادي في قومه: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ (سورة الزخرف: ٥١)، فهل نفعه ملكه وجناته وغيونه؟ وهل أغنت عنه من عذاب الله من شيء؟

فكيف بهم وقد اسودت وجوههم أشد سواداً من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلّت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطئون حسك الحديد بأحداقهم فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، وهذا هو بعض جملة أحوالهم!!

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ومثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به ويتقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه بل لا مندوحة ولا محيص له ولا مناص ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ كما قال: تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ (سورة الحج: ٢٢). فلا يزالون يريدون أن يخرجوا مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا بَنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ مِنَ النَّارِ؟» فيقول: «شر مضجع» فيقال: «هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟» فيقول: «نعم يارب» فيقول الله تعالى: «كذبت، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار»^(٢).

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور: «وأصل الكلام: لو أن لهم ما في الأرض ليفتدوا به ومعه مثله دل على تعجيل اليأس من الافتداء إليهم ولو بمضاعفة ما في الأرض»^(٣).

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض: هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعاً، ولكن السياق يفترض لهم ما فوق الخيال في عالم الافتراض فيفرض أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه، ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا

(١) «تفسير ابن كثير» (ج ٢، ص ٥٥).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) «التحرير والتنوير» (ج ٦، ص ١٨٩).

وذلك لينجوا به من عذاب يوم القيامة، ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار ثم عجزهم عن بلوغ الهدف وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم.

إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات . . . منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معه . . . ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به . ومنظرهم وهم مخيخوا الطلب غير مقبولي الرجاء . . . ومنظرهم وهم يدخلون النار . . . ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها . . . ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء . . . ويسدل الستار ويتركهم مقيمين هناك^(١)!

(١) «الظلال» (ج ٢، ص ٨٨٢).

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (سورة الرعد: ١٨).

قال القرطبي: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي: لم يجيبوا إلى الإيمان به، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: من الأموال، ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ ملك لهم. ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة، ونظير ذلك في آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ (سورة آل عمران: ١٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ (سورة آل عمران: ٩١).

قال القرطبي: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مسكنهم ومقامهم، ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: الفراش الذي مهدوا لأنفسهم^(١).

قال ابن كثير: في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: من مات فلن يقبل منه خير أبداً ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً لو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها^(٢).

(١) «تفسير القرطبي» (جـ ٥، ص ٢٠١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ ١، ص ٢٨٠).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (سورة آل عمران: ١٠).

يخبر الله تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (سورة غافر: ٥٢). وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ولا ينجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (سورة التوبة: ٥٥)، وقال تعالى: ﴿لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٦-١٩٧).

وقال ها هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه.

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي: خطبها الذي تسجر به وتوقد به كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٨).^(١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾: قال سيد قطب: والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ولكنهما لا يغنيان شيئا في ذلك اليوم الذي لا ريب فيه لأنه لا خلاف لميعاد الله وهم فيه ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ .. بهذا التعبير الذي يسلبهم كل خصائص الإنسان وميزاته ويصورهم في صورة الحطب والخشب وساء... ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ لا بل إن الأموال والأولاد ومعهما الجاه والسلطان لا تغني شيئا في الدنيا^(٢).

(١) «ابن كثير» تفسير (ج١، ص ٣٤٩).

(٢) «في ظلال القرآن الكريم» (ج١، ص ٣٧٢).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الزمر: ٤٧-٤٨).

أي: ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿لافتدوا به من سوء العذاب﴾ أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبًا.

﴿وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم. ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا به يستهزئون^(١).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ إنه الهول الملفوف في ثنایا التعبير الرهيب. فلو أن لهؤلاء الظالمين - الظالمين بشركهم وهو الظلم العظيم - لو أن لهؤلاء ﴿ما في الأرض جميعًا﴾ مما يحرصون عليه وينأون عن الاسلام اعتزازًا به. ﴿ومثله معه﴾ لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة.

وهول آخر يتضمنه التعبير الملفوف: ﴿وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ ولا يفصح عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه. لا يفصح عنه ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف... فهو الله، الله الذي يبدو منه لهؤلاء الضعاف ما لا يتوقعون! هكذا بلا تعريف ولا تحديد!

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهذه كذلك تزيد الموقف سوءاً. حين يتكشف لهم قبح ما فعلوا، وحين يحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير وهم في ذلك الموقف الأليم الرعب^(١).

فأين الظالمون في الدنيا المستهزئون بعباد الله الصالحين؟ أين حمزة البسيوني الذي تجرأ على الله وكان يقول للدعاة الصالحين - حينما كانوا يخوفونه بالله من شدة تعذيبه لهم -: ائتوني بربكم أضعه في الحديد؟! بل أين الذين كانوا يستهزئون بالأنبياء والرسل ويتخذونهم سخرى؟! فهل بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون؟ وهل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعد والوعيد؟ نعم! بل بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ولا يتوقعون!!!.

هذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هولاء قد انتشرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كُورت، والجبال قد سُيرت، والعشار قد عطلت، والوحوش قد حُشرت، والبحار قد سُجرت. قد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لنقف على كثرة معانيها: تُوضع الموازين وتُنشر الدواوين وُبرزت الجحيم وأُغلي الحميم وزفرت النار ويش الكفار وسُمرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان؛ فيومئذ: ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيٍّ (١١) وَصَاحِبَةٍ وَآخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (سورة المعارج: ١١-١٤). أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم ثم يعز بعضهم عن بعض بعد ذلك».

(١) سيد قطب: «في ظلال القرآن» (ج ٥، ص ٣٠٥٦)

يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (سورة عبس: ٣٧)، وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (سورة لقمان: ٢٣)، وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (سورة فاطر: ١٨)، وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠١)، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (سورة عبس: ٣٤-٣٧).

يقول سيد قطب: إن الناس في همٍّ شاغل لا يدع لأحد منهم أن يلتفت خارج نفسه ولا يجد فسحة في شعوره لغيره: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (سورة الماعج: ١٠)، فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج وحبس النفوس على همها لا تتعداه . . . وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض: ﴿يُتَصَرُّونَهُمْ﴾ (سورة الماعج: ١١)، كأنما عمداً وقصداً! ولكن لكل منهم همه ولكل ضمير منهم شغله، فلا يهتس في خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله ولا أن يسأله عونه فالكرب يلف الجميع والهول يغشى الجميع فما بال ﴿الْمُجْرِمِ﴾ (سورة الماعج: ١١). إن الهول ليأخذ بحسه وإن الرعب ليذهب بنفسه وإنه ليود لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه من كان يفتديهم بنفسه في الحياة ويناضل عنهم ويعيش لهم . . . بينيه، وزوجه، وأخيه، وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه. بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . . . وهي صورة للهِفَةِ الطاغية والفرع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات! صورة مبطنة بالهول معمورة بالكرب موشاة بالفرع ترتسم من خلال التعبير القرآني الموحى^(١).

(١) «في ظلال القرآن» (ج٦، ص ٣٦٩٧).

وبينما المجرم في هذه الحال يتمنى ذلك المحال يسمع ما يبئس ويقنط من كل بارقة أمل أو كل حديث خادع من النفس كما يسمع الملائمة جميعاً حقيقة الموقف وما يجري فيه .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبئس المصير ﴾
(سورة الحديد: ١٥) أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه .

وقوله تعالى: ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي: هي مصيركم وإليها متقلبكم، ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير^(١) .

لقد كنتم في الدنيا في سعة من العيش منهمكين في الشهوات متمتعين بها متمكنين منها لترامي طباعهم إليها فأعقبهم ما في جبلاتهم من الإخلاد إلى الترف، وعدم الاعتبار والاعتاظ في الدنيا والتكبر على الدعاة إلى الله، وفي الآخرة شدة الألم لرقة أجسامهم المهينة للترف بتعودها الراحة بإخلادها إليها وتعويلها عليها^(٢) .

فيا أخي . . لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربك، ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم، ولا تبث وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور .

أخي . . إن الموتى لم يبكوا من الموت، ولكنهم يبكون من حسرة الفوت، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها، ودخلوا داراً لم يتزودوا لها، فأى ساعة مرت على من مضى وأى ساعة بقيت علينا؟

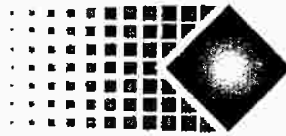
(١) «تفسير ابن كثير» (ج٤، ص ٣١٠) .

(٢) «نظم الدرر» (ج١٩، ص ٢١٣) .

أخي . . إن الآمال تطوى، والأعمار تفتنى، والأبدان تحت التراب تبلى، وإن الليل والنهار يتراکضان كتراکض البريد، ويقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، وفي ذلك ما يلهمي عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغب في الباقيات الصالحات.

أخي . . اعمل ما وجدت سبيلاً للعمل، وما دمت في فسحة ومهل، ومهد المضطجع، ووطئ لذلك المصراع:

فيا هذا سترحل عن قريب ■*■ إلى قوم كلامهم السكوت^(١)



(١) «الجزء من جنس العمل» (ج٢، ص: ٤٢٩).